الفصل الثامن

لوثر امام المجمع

كان قد اعتلى عرشَ المانيا امبراطورٌ جديد يدعى شارل الخامس، فأسرع رسل روما يَزجون اليه التهانئ ويحرضونه على استخدام سلطانه لمحاربة الاصلاح. ومن الناحية الاخرى تقدم اليه منتخِب سكسونيا الذي كان شارل مدينا له بتاجه الى حد كبير، متوسلا اليه الا يتخذ اجراءات ضد لوثر حتى يعطيه فرصة للدفاع عن نفسه. فكان الامبراطور في مركز يبعث على الارتباك والحيرة. ولم يكن البابويون يقنعون بشيء أقل من أن يصدر الامبراطور امرا ملكيا يحكم بمقتضاه على لوثر بالموت. لكنّ المنتخب أعلن انْ «لا جلالة الامبراطور ولا أي شخص آخر أعلن أن كتابات لوثر قد نُقضت أو فندت»، ولذلك طلب «أن يعطي الدكتور لوثر صك أمان حتى يتسنى مثوله أمام محكمة يكون قضاتها رجالا علماء أتقياء منصفين» (٧٩).

اتجه انتباه الاحزاب جميعها الى اجتماع الولايات الالمانية، الذي كان سيعقد في مدينة ورمس حالا بعد اعتلاء شارل عرش الامبراطورية. وكانت هنالك مسائل ومصالح سياسية كان على مجلس الامة ان يتأمل فيها ويتدبرها، ولأول

مرة كان امراء المانيا سيقابلون مليكهم الشاب ويجتمعون معا للمداولة. ولقد أتى أحبار الكنيسة ورجال الدولة من كل الاماكن من وطن آبائهم. كان هناك اللوردات المدنيون المتحدِّرون من أصل عريق والمتباهون بحقوقهم الموروثة، ورجال الاكليروس النبلاء المعتزّون بسيادتهم العظيمة في المقام والسلطان، كما كان هناك فرسان البلاط النبلاء وضباطهم المسلحون، وكذلك جاء سفراء الدول الاجنبية البعيدة ــ كل هؤلاء اجتمعوا معا في ورمس. ومع هذا ففي ذلك الاجتماع العظيم كان الموضوع الذي أثار أعظم اهتمام هو دعوة المصلح السكسوني.

كان شارل قد أشار على المنتخب من قبل أن يأتي بلوثر معه الى المجمع مؤكدا له حمايته، وواعدا اياه بحرية المناظرة والجدال مع رجال اكفاء في المشاكل التي هي موضوع النزاع. وكان لوثر مشتاقا للمثول أمام الامبراطور. ومع أنه كان معتل الصحة في ذلك الحين فقد كتب الى المنتخب يقول له: « اذا تعذر عليَّ الذهاب الى ورمس وأنا في كامل صحتي فسأحمل الى هناك وأنا مريض كما أنا. لأنه ما دام الامبراطور يستدعيني فأنا لا أشك في أنها دعوة من الله نفسه. فاذا كانوا يريدون أن يعاملوني بالعنف والقسوة، وهذا مرجح جدا لانهم لا يأمرونني بالمثول أمامهم لكي القي عليهم تعاليمي، فأنا أضع مسألتي هذه بين يدي الرب. ان ذاك الذي قد حفظ الفتية الثلاثة في أتون النار الملتهبة لا يزال حيا، وهو يملك. فاذا لم ينقذني فان حياتي ليست ذات قيمة كبيرة. لنحرص على الانجيل حتى لا يتعرض لاحتقار الاشرار، ولنسفك دماءنا لأجله خوفا من انتصارهم. وليس لي أن أحكم في ما اذا كانت حياتي او موتي سيساهم بالاكثر في خلاص الجميع... يمكنك أن تنتظر مني أي شيء... ما عدا الهروب والانكار. أنا لا يمكنني الهروب، وأكثر من ذلك لا أستطيع التراجع » (٨٠).

وعندما أشيع في مدينة ورمس النبأ الذي يفيد بأن لوثر سيمثل أمام مجلس الامة حدث اهتياج عام. اما الياندر، مبعوث البابا الذي أسندت اليه تلك القضية خصيصا، فقد استولى عليه الفزع والحنق. فقد رأى أن النتيجة ستكون

وبيلة على الدعوة البابوية. فكونُه يفحص قضية سبق للبابا ان اصدر حكمه فيها بالادانة معناه احتقار سلطان البابا وسيادته. وفضلا عن ذلك فقد كان يخشى أن تكون فصاحة هذا الرجل وحججه القوية سببا في تحويل قلوب الامراء وارتدادهم عن الدعوة البابوية. ولهذا فقد احتج بلهجة شديدة أمام شارل على مجيء لوثر الى ورمس. وقرابة هذا الوقت كانت براءة البابا القاضية بحرم لوثر قد نُشرت وأذيعت، فاذ اضيفت اليها اقوال القاصد الرسولي مال الامبراطور الى التنازل، فكتب الى المنتخب يقول انه اذا لم يتراجع لوثر فليبقَ في وتنبرج. لم يقنع الياندر بهذا الانتصار بل بذل قصاراه من دهاء واحتيال ليضمن ادانة لوثر. وباصرار كان خليقا بدعوى افضل، ألح على الامراء والاساقفة واعضاء المجلس الآخرين بالالتفات الى هذه القضية. وأتهم المصلح بأنه «مثير فتن ومتمرد وملحد ومجدف». لكنّ احتدام هذا السفير وغضبه كشفا بكل جلاء عن الروح التي دفعته الى ذلك. وقد كانت الملاحظة التي تناقلتها ألسنة الجميع هي هذه: «انه مدفوع الى ذلك بالكراهية وحب الانتقام اكثر مما هو مدفوع بالغيرة أو التقوى » (٨١). ولقد كانت غالبية أعضاء المجلس اشد ميلا الى استحسان دعوة لوثر والرضا عنها.

لكنّ الياندر ألح على الامبراطور بغيرة مضاعفة بوجوب تنفيذ مراسيم البابا. ولكن بموجب شرائع المانيا لم يكن ذلك ممكنا ما لم يُجمع الامراء على ذلك، واذ انتصرت عليه لجاجة المبعوث اخيرا أمره شارل بأن يعرض قضيته أمام المجلس. « لقد كان ذلك اليوم مدعاة افتخار للقاصد الرسولي. كان ذلك الاجتماع عظيما وحافلا وكانت الدعوة اعظم. وكان على الياندر أن يدافع عن روما... أم الكنائس وسيدتهن جميعا ». كان عليه ان يؤيد خلافة بطرس أمام رؤساء العالم المسيحي المجتمعين. « وكان رجلا فصيحا وموهوبا. وأضفت عليه تلك المناسبة عظمة وسموا كبيرين. وقد رتبت العناية أن تظهر روما وتترافع على لسان أقدر خطبائها في حرم محكمة من أعظم المحاكم قبلما حُكم بادانتها» (٨٢). وكان اولئك الذين ناصروا المصلح يتطلعون قُدماً الى تأثير كلام الياندر بخوف وجزع. ولم يكن منتخب سكسونيا حاضرا ولكن بناء على مشورة بعض أعضاء مجلس

الشورى حضر ليكتب بعض المذكرات عن خطاب القاصد الرسولي.

يتهمونه بالهرطقة

ان الياندر بكل ما كان لديه من علم وفصاحة نصب نفسه لهدم الحق. لقد قدم ضد لوثر تهمة في اثر تهمة قائلا عنه أنه عدو الكنيسة والدولة، عدو الاحياء والموتى، عدو الاكليروس والعلمانيين، وعدو المسيحيين مجالس وافرادا. وقد أعلن قائلا: «ان في اخطاء لوثر وضلالاته ما يكفي لحرق مئة الف هرطوقي» . وفي ختام خطابه حاول أن يلقي الاحتقار على معتنقي العقيدة المصلحة فقال: «ما هؤلاء اللوثريون جميعا؟ انهم جماعة من الكهنة والمعلمين السفهاء والرهبان الفاسقين والمحامين الجهلة والنبلاء المنحطين مع عامة الشعب الذين قد أضلوهم وافسدوهم. ولكن كم يفوقهم ويسمو عليهم الحزب الكاثوليكي في العدد والمقدرة والقوة! ان قرارا باجماع الآراء يصدره هذا المجلس الشهير كفيل بأن ينير السذج البسطاء ويحذر الغافلين العديمي الفطنة ويثبت المتقلقلين المترددين ويمنح الضعفاء قوة» (٨٣).

بمثل هذه الاسلحة هوجم دعاة الحق في كل عصر. وهذه الحجج نفسها لا تزال تواجه كل من يتجرأ على تقديم تعاليم كلمة الله الواضحة الصريحة لمقاومة الضلالات الراسخة. ان من يرغبون في ديانة رخيصة يصرخون قائلين: « من هؤلاء الذين يكرزون بدين جديد؟ انهم عديمو العلم وقليلو العدد ومن الطبقات الفقيرة. ومع ذلك فانهم يدَّعون أن الحق بجانبهم وانهم شعب الله المختار. انهم جهلة ومخدوعون، وكم تفوقهم كنيستنا في العدد والنفوذ! وما اكثر العظماء والعلماء بيننا! وما أعظم السلطان الذي يناصرنا!» هذه هي الحجج التي لها التأثير الفعال على العالم، ولكنها ما عادت قاطعة الآن اكثر مما كانت في ايام المصلح.

ان الاصلاح لم يندثر بموت لوثر كما يظن كثيرون. انه سيظل باقيا الى نهاية تاريخ هذا العالم. لقد كان لدى لوثر عمل عظيم اذ قد عكس على الآخرين النور

الذي سمح الله بأن يشرق عليه. ومع ذلك فهو لم يحصل على كل النور الذي كان معداً لان يعطى للعالم. فمنذ ذلك الحين الى يومنا هذا وكل يوم يكشف لنا عن نور جديد يشرق على الكتاب المقدس، وكانت حقائق كثيرة تنكشف باستمرار.

احدث خطاب مبعوث البابا اثرا عميقا في نفوس اعضاء المجمع. لم يكن لوثر حاضرا بما لديه من حقائق كلمة الله الواضحة المقنعة ليهزم البطل البابوي. ولم يُبذل أي مسعى للدفاع عن المصلح. وكان هنالك اتجاه عام ظاهر لا لادانته هو وتعاليمه فحسب، بل ايضا لاستئصال تلك الهرطقة لو كان ذلك ممكنا. لقد تمتعت روما بأعظم فرصة مواتية للدفاع عن قضيتها، وقالت كل ما في وسعها ان تقوله لتزكية نفسها. لكنّ نصرتها الظاهرة كانت دليل الهزيمة. ومنذ ذلك الحين كان الفارق بين الحق والضلال سيظهر واضحا وجليا عندما يشتبكان في حرب علنية. ومنذ ذلك اليوم لم تعد روما قادرة ان تقف آمنة ثابتة كما كانت قبلا.

ولكن في حين ان معظم اعضاء المجلس ما كانوا ليترددوا في تسليم لوثر لغضب روما وانتقامها فان كثيرين منهم رأوا الفساد المتفشي في الكنيسة وحزنوا لذلك ورغبوا في ازالة الفضائح وسوء المعاملة التي كان الشعب الالماني يتحملها نتيجة لفساد حكومة البابا وجشعها. لقد عرض السفير حكم البابا في أجمل نور خلاب. أما الآن فها هو الرب يحرك احد اعضاء المجلس ليقدم صورة حقيقية لآثار طغيان البابوية. فبكل نبل وثبات وقف الدوق جورج السكسوني في ذلك الحفل العظيم وطفق يسرد بدقة مرعبة مخاتلات البابوية ورجاساتها ونتائجها الفظيعة. وفي ختام كلامه قال:

«هذا قليل من كثير من الفضائح الصارخة ضد روما. لقد طُرح الخجل والاستحياء جانبا، وكل ما تهدف روما اليه انما هو المال، المال، المال... بحيث ان المبشرين الذين ينبغي الا يعلموا غير الحق لا ينطقون بغير الاكاذيب، ولا يُكتفى بالسكوت عنهم والتساهل معهم بل يكافأون على ذلك لأنه بقدر ما تكثر

اكاذيبهم تزداد ارباحهم. ومن هذا النبع القذر الفاسد تفيض هذه المياه الملوثة. أن الدعارة تمد يدها الى الطمع... واأسفاه! ان الفضائح التي يرتكبها رجال الاكليروس تقذف بنفوس كثيرة مسكينة الى الهلاك الابدي. فلا بد أن يتم اصلاح عام!» (٨٤).

إن لوثر نفسه لم يكن في مقدوره أن يسرد كل تلك الفضائح البابوية، وإن حقيقة كون المتكلم من ألد أعداء المصلح أضفت على أقواله تأثيراً أعظم.

ولو أن أعضاء المجلس فتحوا عيونهم لكانوا قد رأوا ملائكة الله في وسطهم يسلطون اشعة النور على ظلمات الضلال ويفتحون العقول والقلوب لقبول الحق. أن قوة اله الحق والحكمة هي التي سيطرت حتى على خصوم الاصلاح، وهكذا مهدت الطريق للعمل العظيم العتيد. لم يكن مارتن لوثر حاضرا في ذلك المجلس، لكنّ الله الذي هو أعظم من لوثر أسمع اولئك المجتمعين صوته الذي هو صوت الحق.

يدعى للمثول أمام المؤتمر

وفي الحال عين المجلس لجنة لاعداد بيان بحوادث طغيان البابا وظلمه الذي أثقل كاهل الشعب الالماني. فهذه القائمة التي اشتملت على أكثر من مئة وصف قُدمت الى الامبراطور مشفوعة بالتماس اتخاذ الاجراءات السريعة للقضاء على تلك الفضائح. وقال مقدمو تلك العريضة: «يا لَضَيْعة نفوس المسيحيين ويا لهول حوادث النهب والاغتصاب بسبب الفضائح المحيطة بسيد العالم المسيحي! ان الواجب يقتضينا ان نضع حدا للخراب والعار اللذين لحقا ببلادنا وشعبنا. فلهذا السبب نحن بكل تواضع بل بكل الحاح نتوسل اليك يا صاحب الجلالة أن تأمر باجراء اصلاح عام وتباشر اتمامه» (٨٥).

وهنا طلب المجلس حضور المصلح ليمثل امامهم. وعلى الرغم من توسلات الياندر واحتجاجاته وتهديداته قبل الامبراطور ذلك الطلب اخيرا ودُعي لوثر

للمثول أمام المجلس. وقد أرسل مع ذلك الامر الرسمي صك أمان مؤكدا له أنه سيعود الى مكان أمين. وقد حمل هاتين الرسالتين رسول انطلق الى وتنبرج لكي يأتي بلوثر الى ورمس.

ارتعب اصدقاء لوثر واغتموا. فاذ كانوا يعرفون شدة التعصب والعداء اللذين يضمرهما له خصومه كانوا يخشون أنه حتى صك الامان المرسل اليه قد لا يُحترم، ولذلك توسلوا اليه الا يخاطر بحياته. فأجابهم بقوله: «ان البابويين لا يرغبون في ذهابي الى ورمس بل يرغبون في ادانتي وموتي. ولكن ذلك لا يهم. لا تصلُّوا لاجلي بل لأجل كلمة الله... ان المسيح سيمنحني روحه لأنتصر على خدام الضلال هؤلاء. اني أحتقرهم مدى حياتي وسأنتصر عليهم بموتي. إنهم في « ورمس » يتآمرون لإرغامي على التراجع، وهذا ما سأقوله في تراجعي: " لقد قلت قبلا ان البابا هو نائب المسيح، أما الآن فأقر أنه عدو ربنا وخصمه ورسول الشيطان " » (٨٦).

غيوم في الافق

ولم يكن لوثر ليسير في رحلته الخطرة وحده، ففضلا عن رسول الامبراطور صمم ثلاثة من أشجع اصدقائه على مرافقته. وكان ميلانكثون يرغب بكل لهفة ان يصحبهم. كان قلبه مرتبطا بقلب لوثر، وكان يتوق الى اتباعه الى السجن أو الموت اذا دعت الضرورة. لكنّ توسلاته رفضت. فلو مات لوثر فان الامل في بقاء الاصلاح وتقدمه سيتركز في ذلك الشاب. قال المصلح وهو يودع ميلانكثون: «اذا لم أرجع وقتلني اعدائي فداوم أنت على التعليم وابقَ ثابتاً في الحق وجاهد بدلاً مني... فان بَقَيت انت حيا فلن يكون لموتي كبير أهمية» (٨٧). تأثر الطلبة والمواطنون الذين اجتمعوا لمشاهدة لوثر وهو يرحل تأثرا عظيما. وان جمعا كبيرا ممن كانوا قد تأثروا بتعاليم الانجيل ودّعوه وهم يبكون. وهكذا سافر المصلح ورفاقه من وتنبرج.

مارتن لوثر - المصلح الاكبر

وفيما كانوا مسافرين لاحظوا أن عقول الناس كانت متضايقة من جراء التطيرات الكئيبة. وفي بعض المدن لم يقابَلوا بالاكرام. وعندما مالوا ليبيتوا تلك الليلة عبَّر كاهن صديق عن مخاوفه برفعه أمام عيني لوثر صورة مصلح ايطالي قاسى آلام الاستشهاد. وفي اليوم التالي علموا أن مؤلفات لوثر قد حُرمت وحكم ببطلانها في ورمس. وكان رسل الامبراطور يعلنون حكمه ويذيعونه ويدعون الشعب الي احضار تلك الكتب المصادرة الى الحكام. واذ كان رسول الامبراطور يخشى على سلامة لوثر في المجلس ويظن أن عزمه قد تزعزع سأله عما اذا كان لا يزال راغبا في التقدم في سيره فأجابه قائلا: «ولو وقع عليَّ الحرم في كل مدينة فلا بد من ذهابي» (٨٨).

يعظ في ارفرت

وفي أرفرت قوبل لوثر بكل اكرام. فاذ كان محاطا بجموع المعجبين سار في شوارع تلك المدينة التي كان قبلا يسير فيها حاملا مزود المتسولين. ثم زار غرفته في الدير وجعل يفكر في المصارعات التي عن طريقها أشرق على نفسه النور الذي صار الآن يغمر كل المانيا. وقد ألحوا عليه أن يقدم عظة، ومع أن ذلك كان محظورا عليه فان الرسول الموفد اليه اذن له بذلك. ولذلك اعتلى المنبر ذاك الذي كان قبلاً راهباً كادحاً في هذا الدير.

وقد خاطب ذلك الجمع الحاشد بكلام المسيح قائلا: « سلام لكم ». ثم قال: «لقد حاول الفلاسفة والاساتذة والكُتَّاب أن يعلموا الناس الطريق للحصول على الحياة الابدية فلم يفلحوا. ولكني سأحدثكم عنه الآن... لقد أقام الله رجلا من بين الاموات، الرب يسوع المسيح، لكي يبيد الموت ويستأصل الخطيئة ويغلق أبواب الجحيم. هذا هو عمل الخلاص... لقد غلب المسيح! هذا هو الخبر السار، ونحن قد خلصنا بعمله لا بأعمالنا... لقد قال ربنا يسوع المسيح: " سلام لكم، أنظروا يدي "، أي أنظر أيها الانسان اني أنا من دون سواي الذي رفعت خطاياك وافتديتك، والآن لك السلام قال الرب».

وتابع حديثه مبينا أن الايمان الحقيقي يظهر في الحياة المقدسة، قال: «بما ان الله قد خلصنا فلنعمل اعمالنا بحيث تكون مقبولة لديه. أأنت غني؟ أجعل أموالك تخدم حاجات الفقراء. وهل أنت فقير؟ لتكن خدماتك مقبولة لدى الاغنياء. فان كان عملك نافعا لك وحدك فخدمتك التي تتظاهر بتقديمها لله هي كذب» (٨٩).

كان الناس يصغون وقد سحرتهم تلك الاقوال. لقد كسر خبز الحياة لتلك النفوس الجائعة. وقد رُفع المسيح أمامهم أعلى من الباباوات والسفراء والاباطرة والملوك. ولم يُشِر لوثر الى مركزه المحفوف بالمخاطر، ولم يحاول أن يجعل نفسه موضوع التفكير او العطف. فاذ كان يتأمل في المسيح لم يكن يرى ذاته، بل اختفى خلف رجل جلجثة، محاولا أن يقدم يسوع وحده كفادي الخطاة.

شجاعة المصلح

كلما تقدم المصلح في رحلته كان يقابَل في كل مكان باهتمام عظيم. وكانت الجموع المشتاقة تتجمهر من حوله. وكان اصدقاؤه يحذرونه من نوايا البابويين. قال بعضهم: « انهم سيحرقونك ويصيِّرون جسدك رمادا كما قد فعلوا مع هس ». فأجابهم لوثر قائلا: « حتى لو اشعلوا النيران في كل الطريق من ورمس الى وتنبرج بحيث ترتفع ألسنتها الى عنان السماء فسأجتاز فيها باسم الرب وسأمثل أمامهم وسأدخل من شدقي هذا البهيموت وأحطم أسنانه اذ اعترف بالرب يسوع المسيح » (٩٠).

وقد احدثت انباء قدوم لوثر الى ورمس هرجا ومرجا عظيمين. وكان اصدقاؤه يرتعدون خوفا على سلامته، وكان اعداؤه يخافون على نجاح دعوتهم. وبُذلت مساعٍ حثيثة لاقناعه بالعدول عن دخول المدينة. وبتحريضات البابويين الح الاعداء عليه كي يلتجىء الى قلعة فارس صديق حيث ستحل كل المشاكل

حلا سلميا، كما افادوا. وحاول اصدقاؤه أن يثيروا مخاوفه اذ جعلوا يصفون له المخاطر التي تتهدده. لكنّ كل مساعيهم كان مصيرها الفشل، فان لوثر الذي ظل ثابتا أعلن قائلا: « ولو كان في ورمس أبالسة بقدر عدد القرميد الذي فوق سطوحها فلا بد لي من دخولها » (٩١).

يصل الى ورمس

ولدى وصوله الى ورمس تجمَّع قوم كثيرون للترحيب به. ان الامبراطور نفسه لم يُستقبل بمثل ذلك الاستقبال العظيم. كان الاهتياج عظيماً، ومن وسط ذلك الجمع ارتفع صوت مجلجل حزين منذرا لوثر بالمصير الذي ينتظره. فلما نزل من عربته قال: «ان الله سيكون حصني».

لم يكن البابويون يصدقون أن لوثر سيجيء الى ورمس مخاطرا بحياته، ولذلك فقد ملأهم مجيئه ذعرا. وفي الحال استدعى الامبراطور مشيريه ليتداولوا معا في ما يجب عليهم أن يفعلوه، واذا بأسقف عنيف قاس من البابويين يعلن قائلا للامبراطور: «لقد تباحثنا في هذه المسألة طويلا فالافضل أن تتخلص من هذا الرجل في الحال يا صاحب الجلالة. ألم يأمر سجسموند بحرق هس ؟ اننا لسنا ملزمين باعطاء رجلٍ هرطوقي صك أمان أو الاعتراف بذلك الصك ». لكنّ الامبراطور قال: « كلا بل علينا ان نحافظ على وعدنا » (٩٢) ولذلك فقد تقرر أن يُعطى المصلح فرصة للكلام.

كانت المدينة كلها مشتاقة لرؤية هذا الرجل العظيم، فامتلأ الجناح الذي كان لوثر يقيم فيه بجمع كبير من الزوار. ولم يكن لوثر قد أبلَّ تماما من مرضه الاخير، كما كان متعبا من سفره الطويل الذي استغرق اسبوعين كاملين، وكان عليه أن يتأهب لمواجهة الاحداث الجسيمة التي تنتظره في الغد، فكان في حاجة الى السكون والراحة، لكنّ شوق الناس الى رؤيته كان عظيما بحيث لم يكن لديه غير ساعات قليلة من الراحة. واذا بالنبلاء والفرسان والكهنة والمواطنين يتجمهرون حوله بشوق عظيم. كان بين هذا الجمع كثيرون من النبلاء

الذين بكل جرأة طلبوا من الامبراطور ان يجري اصلاحا للاضرار التي احدثها رجال الاكليروس، والذين، كما قال لوثر، «قد تحرروا جميعا بواسطة بشارتي» (٩٣). وقد أقبل الاعداء والاصدقاء على السواء لرؤية هذا الراهب الجريء، لكنه استقبلهم جميعا بهدوء وثبات، وكان يحييهم جميعا بوقار وحكمة. وقد دلت هيئته على الثبات والشجاعة. وان وجهه الشاحب النحيل، الذي بانت فيه آثار الاجهاد والمرض، كانت تبدو عليه سيماء الايناس والفرح. والجلال والغيرة العظيمة اللذان امتازت بهما أقواله اكسباه قوة لم يستطع حتى أعداؤه أن يصمدوا أمامها تماما. فامتلأ اصدقاؤه واعداؤه دهشة. وقد اقتنع بعضهم بأن قوة الهية تسنده، بينما آخرون قالوا ما قاله الفريسيون عن المسيح: « به شيطان ».

وفي اليوم التالي دُعي لوثر لحضور المجلس. وقد تعين على ضابط من حرس الامبراطور أن يقوده الى قاعة الاجتماع. ومع ذلك لاقى صعوبة كبيرة في الوصول الى المكان. فلقد ازدحم كل شارع وطريق بجماهير المتفرجين المشتاقين لرؤية ذلك الراهب الذي تجرأ على تحدي سلطان روما.

واذ كان موشكا على المثول أمام قضاته تقدم اليه احد قواد الجيش العظام، الذي كان بطلا مغوارا في كثير من المعارك، وقال له بكل رفق: «أيها الراهب المسكين انك على أهبة ان تقف موقفا أشرف وأكرم وأنبل من كل المواقف التي وقفتها أنا وكل القادة في أعنف معاركنا الدموية. فان كانت قضيتك عادلة وكنتَ واثقا من ذلك فسر الى الامام باسم الله ولا تخش شيئا، فالله لن يتركك » (٩٤).

امام مجلس الامة

اخيرا وقف لوثر أمام المجلس. جلس الامبراطور على عرشه، وكانت تحف به اشهر الشخصيات في الامبراطورية. لم يسبق لانسان ان مثل امام مجمع

مهيب كالذي وقف مارتن لوثر أمامه ليدافع عن ايمانه وعقيدته. « لقد كان مجرد مثوله في حضرة رجال المجلس انتصارا فريدا على البابوية. فالبابا حكم بادانة ذلك الرجل وها هو الآن واقف أمام محكمة كانت بذات الفعل قد رفعت نفسها فوق البابا. كان البابا قد وضعه تحت الحرم وبتره من كل المجتمع البشري، ومع ذلك فها هو يُستدعى بكل تقدير واحترام ويمثل أمام أعظم محكمة مهيبة في العالم. كان البابا قد حكم عليه بأن يظل صامتا الى الابد وها هو الآن يوشك ان يتكلم أمام آلاف السامعين المنتبهين الى كل كلمة يقولها والقادمين من اقصى انحاء العالم المسيحي. ها قد حدثت ثورة هائلة بواسطة لوثر. لقد بدأت روما تسقط من فوق عرشها. وكان صوت ذلك الراهب كفيلا بأن يوقعها في هذا الاذلال » (٩٥).

بدا التهيب والارتباك على وجه ذلك المصلح الوضيع الاصل عندما مثل أمام هيئة ذلك الحفل القوي الشريف العريق. واذ لاحظ بعض الامراء انفعاله اقتربوا منه وقال له أحدهم في همس: « لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها ». وقال آخر: « وتساقون أمام ولاة وملوك من أجلي... لانكم تعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به لأن لستم انتم المتكلمين بل روح ابيكم الذي يتكلم فيكم». وهكذا اقتبس رجال العالم العظام أقوال المسيح لتشجيع خادمه وتقويته في ساعة التجربة.

أوقف لوثر في مكان مواجه لعرش الامبراطور مباشرة. وقد ران على ذلك المجمع العظيم صمت عميق. حينئذ وقف احد ضباط الامبراطور، واذ أشار الى مجموعة من مؤلفات لوثر طلب منه الاجابة عن سؤالين: هل يعترف بأن تلك الكتب هي كتبه، وهل يقصد أن يتبرأ من الآراء التي كتبها فيها ؟ وبعدما تليت اسماء تلك الكتب اجاب لوثر بأنه في ما يختص بالسؤال الاول يعترف بأن الكتب تخصه. ثم قال: « أما السؤال الثاني فبما أنه يتناول الايمان وخلاص النفوس، وكلمة الله التي هي أغلى كنز وأثمن ذخر في السماء وعلى الارض، فلو أنني أجبت عنه من دون تفكير أو تأمل فان تصرفي يكون مجانبا للحكمة وخالياً من الفطنة، ولعلي أؤكد أقّل مما تقتضيه

الظروف أو أكثر مما يتطلبه الحق، وفي الحالين ينطبق عليَّ قول المسيح: كل من ينكرني قدام الناس أنكره انا ايضا قدام أبي الذي في السموات، (متى ١٠: ٣٣). فلهذا السبب التمس منكم يا جلالة الامبراطور، بكل تواضع، السماح لي بمهلة من الوقت حتى استطيع ان اجيب من دون ان انتهك كلمة الله» (٩٦).

أن لوثر اذ تقدم بهذا الطلب تصرف بحكمة. وقد أقنع تصرفه المجمع بأنه لم يكن يتصرف مدفوعاً بانفعال أو نزوة. فالهدوء وضبط النفس، اللذين لم يكن يُنتظر توفرهما في ذاك الذي برهن على جرأته التي لا تلين، اضافتا الى قوته قوة جديدة اعانته على أن يجيب بعد ذلك بحكمة وتصميم وفطنة ووقار أذهلت خصومه وخيبتهم، وكانت توبيخا لوقاحتهم وكبريائهم .

يجاهد مع الله

وكان عليه أن يمثل أمام المجمع في اليوم التالي ليدلي بجوابه الذي هو فصل الخطاب. وغاص قلبه في داخله بعض الوقت اذ كان يفكر في القوات التي اتحدت معا لمحاربة الحق. فاضطرب ايمانه وترنح، وهجم عليه الخوف والرعب، وغمره الذعر. وقد تجمعت المخاطر وتكاثرت واصطفت أمامه كأنما اعداءه سينتصرون وكأن قوات الظلمة قد غلبت .وقد تجمعت حوله السحب القاتمة وبدت كأنها قد فصلت بينه وبين الله. فكان يتحرق شوقا للحصول على اليقين بأن رب الجنود سيكون معه. ففي عذاب روحه انطرح بوجهه على الارض وسكب هذه الصرخات المتعثرة التي تقطع نياط القلب ولا يستطيع أن يفهمها تمام الفهم غير الله.

توسل قائلا: «ايها الاله السرمدي القدير، ما أرهب هذا العالم! ها هو يفغر فاه لابتلاعي، وأنا ضعيف الثقة بك... فاذا كان لي أن أركن الى قوة هذا العالم وحدها فقد انتهى كل شيء... لقد دنت ساعتي الاخيرة وقد صدر الحكم بادانتي... يا الله أعنِّي لانتصر على كل حكمة العالم. فافعل هذا... انت وحدك...

لأن هذا ليس عملي بل هو عملك. لا عمل لي لأعمله هنا، وليس لديَّ ما أناضل به ضد عظماء هذا العالم... لكنّ القضية هي قضيتك... وهي قضية عادلة وأبدية. يا رب أعني! ايها الاله الأمين غير المتغير، أنا لا أضع ثقتي بانسان... فكل ما هو من الانسان غير أكيد ولا مضمون، كل ما هو من الانسان مآله الفشل، وهو يخذل من يتكل عليه... لقد اخترتني لهذا العمل... فليتك تقف الى جانبي لأجل ابنك الحبيب يسوع المسيح الذي هو حصني وترسي وبرج قوتي» (٩٧).

لقد سمحت عناية الله الحكيمة للوثر أن يتحقق من الخطر الذي يتهدده حتى لا يثق بقوته ويندفع الى الخطر في طيش، ومع ذلك فان ما كان يحدق به ويتهدده لم يكن خوفه من الآلام الشخصية أو من العذاب او الموت الذي بدا ماثلا أمامه. لقد واجه تلك الازمة وهو يحس بعجزه عن مواجهتها، فقد يخسر قضية الحق بسبب ضعفه. وجاهد مع الله لا لأجل سلامته بل لأجل نصرة الانجيل. وكما كان ضيق يعقوب في صراع تلك الليلة بجوار ذلك المجرى المنعزل، كذلك كان عذاب لوثر وحربه النفسية. وكيعقوب جاهد مع الملاك وغلب. ففي عجزه التام ثبت ايمانه في المسيح المخلص القدير. وقد تقوّى بيقين كونه لن يقف أمام المجلس وحده، فعاد السلام الى نفسه، وفرح لأنه قد سُمح له بأن يرفع كلمة الله أمام رؤساء الأمم.

واذ استند عقل لوثر الى الله تأهب للصراع الذي أمامه. وجعل يفكر في خطة اجابته، واطلع على بعض فصول من كتبه واستخرج من الاسفار المقدسة أدلة مناسبة لتدعيم موقفه. ثم اذ وضع يسراه على الكتاب المقدس الذي كان مفتوحاً أمامه رفع يمناه الى السماء ونذر «ان يظل أمينا للانجيل، وبكل صراحة وحرية يعترف بايمانه حتى ولو ختم شهادته بدمه» (٩٨).

امام المجلس ثانية

عندما ادخل مرة أخرى أمام المجمع لم يكن يبدو على وجهه خوف أو ارتباك. ومع أنه كان هادئا ومسالما فقد كان شجاعا ونبيلا جدا، وهكذا وقف كشاهد لله بين عظماء الارض. وطلب منه ضابط الامبراطور الآن أن يدلي بقراره بما اذا كان يتبرأ من تعاليمه أم لا. فقدم لوثر جوابه بصوت مكبوت متواضع من دون عنف أو غضب. وكان يبدو عليه الخجل والاستحياء والوقار، ومع ذلك فقد أبدى ثقة وفرحا أدهشا المحفِل.

قال لوثر: « يا جلالة الامبراطور الموقر ويا أصحاب السمو الأمراء ويا أيها السادة الاجلاء، اني أمثل أمامكم اليوم امتثالا للأمر الذي صدر اليَّ أمس، واني أناشدكم يا صاحب الجلالة ويا أصحاب السمو أن تصغوا بحلمكم الى الدفاع الذي سأقدمه عن قضية أنا واثق من عدالتها وصدقها. فاذا كنت أخالف عادات المحاكم وآدابها جهلا مني فأنا التمس منكم الصفح والتجاوز عن أخطائي لأني لم أنشأ في قصور الملوك بل في حجرة احد الاديرة» (٩٩).

ثم اذ تقدم للاجابة عن السؤال الموجه اليه قرر أن كتبه ليست كلها من نوع واحد. فبعضها تناول موضوع الايمان والاعمال الصالحة. وقد شهد حتى اعداؤه انفسهم ان هذه الكتب ليست عديمة الضرر بل نافعة. فالتبرؤ منها معناه ادانة حقائق تعترف بها جميع الاحزاب. والصنف الثاني من الكتب تناول مفاسد البابوية وفضائحها. وسحب هذه المؤلفات يزيد من طغيان روما ويفتح الباب على مصراعيه لمزيد من المعاصي. أما النوع الثالث من كتبه فقد هاجم فيه بعض الافراد الذين دافعوا عن الشرور المتفشية. واعترف بكل صراحة أنه في هذه الكتب الاخيرة قد اشتد في عنفه وهجومه أكثر مما يليق. وهو ليس يدَّعي لنفسه العصمة من الأخطاء، ولكن حتى هذه الكتب لا يستطيع أن يسحبها لأن ذلك يزيد من جرأة اعداء الحق ويعطيهم مجالا لأن يسحقوا شعب الله بأعظم قسوة.

ثم استأنف كلامه فقال: «ومع ذلك فأنا لست الا مجرد انسان ولست الها،ولذلك فسأدافع عن نفسي كما قد فعل المسيح: ان كنت قد تكلمت رديا فأشهد على الرديء... واني أناشدكم برحمة الله يا جلالة الامبراطور وانتم يا أصحاب السمو امراء الدولة وجميع الحاضرين من كل الطبقات والدرجات أن تبرهنوا من كتب الانبياء والرسل على أنني اخطأت او ضللت. وحالما تقنعونني بهذا فسأتبرأ من كل ما قد أخطأت أو ضللت فيه وأكون أول من يمسك بهذه الكتب ويلقي بها في النار.

لا سلام بل سيف

« و ما قد قلته الان أرجو أن أكون قد تحريت الدقة فيه ووزنت وتأملت في كل المخاطر التي اعرِّض لها نفسي. ولكني لست خائفا بل أنا فرح اذ أرى الانجيل كما كان في العصور الماضية مثار الاضطراب والمنازعات. هذه هي صفة كلمة اللّه، وهذا هو مصيرها، فلقد قال يسوع المسيح: " ما جئت لألقي سلاما على الارض بل سيفا " ان اللّه عجيب رهيب في مشوراته، اذاً فاحترسوا لئلا وانتم تزعمون أنكم تقضون على الخصومات والمنازعات تضطهدون كلمة اللّه المقدسة وتجلبون على أنفسكم طوفانا من المخاطر والكوارث الحاضرة والخراب الابدي... كان في وسعي أن أورد لكم عدة أمثلة من كتاب اللّه، فاتحدث عن الفراعنة وملوك بابل وملوك اسرئيل الذين حين حاولوا بمشوراتهم التي كانت تبدو حكيمة توطيد دعائم ملكهم كانت جهودهم من أفعل العوامل التي أدت الى هلاكهم. وأن اللّه يزعزع ويزلزل الجبال وهم لا يدرون » (١٠٠).

كان لوثر يتكلم بالالمانية، ولذلك طلب منه أن يعيد ما قاله باللاتينية. ومع أنه كان متعبا من جهده السابق الذي بذله فقد امتثل للأمر وألقى خطابه مرة اخرى بالوضوح والنشاط نفسيهما اللذين تكلم بهما اولا. وقد أرشدته عناية اللّه في هذا الأمر. كانت عقول كثيرون من الامراء قد طمستها ظلمة الضلال والخرافات بحيث أنه عندما تكلم لوثر أول مرة لم يلحظ أحد منهم قوة محاجته،

ولكن عندما أعاد تلاوة خطابه باللاتينية استطاعوا أن يدركوا جيدا وبكل وضوح النقط التي أوردها.

فالذين في عنادهم أغمضوا عيونهم حتى لا يروا النور وأصروا على عدم الاقتناع بالحق حنقوا من قوة كلام لوثر. فلما انتهى من خطابه قال له الناطق باسم المجلس: «انك لم تجاوب على السؤال المطروح عليك... اعطِ الآن جوابا واضحا ومضبوطا. ..فهل تتراجع أم لا؟»

أجاب المصلح قائلا: «حيث أنك يا صاحب الجلالة وأنتم يا أصحاب السمو والعظمة تطلبون مني جوابا واضحا بسيطا ومضبوطا فسأقدم جوابي وهاكم هو: أنا لا يمكنني أن اخضع ايماني فأجعله تحت رحمة البابا أو المجامع لأنه واضح وضوح الشمس أنهم في أحيان كثيرة قد أخطأوا وناقض بعضهم بعضا. ولذلك فاذا لم أقتنع من شهادة كلمة الله أو بالمحاجة الواضحة جدا، وما لم أقتنع بواسطة النصوص التي قد اقتبستها، وما لم تُلزم تلك الأقوال ضميري بواسطة كلمة الله **فأنا لا استطيع أن أتراجع ولا اريد أن أتراجع**. لأنه أمر غير مأمون العاقبة أن يتكلم المسيحي ضد ضميره. هنا أنا أقف ولا يمكنني أن أفعل غير هذا، وليساعدني الله! آمين».

وهكذا وقف هذا الرجل البار ثابتا على الأساس الراسخ، أساس كلمة الله. وقد استنار محياه بنور السماء. وظهرت للجميع عظمته وطهارة خلقه وسلامه وفرح قلبه وهو يشهد ضد سلطان الضلال ويُبرز سمو ذلك الايمان الذي يغلب العالم.

ظل المحفل كله صامتا بعض الوقت من فرط الذهول. عندما قدم جوابه الأول كان يتكلم بكل هدوء وبصوت منخفض بهيئة الاحترام الذي كاد يكون خضوعا. وقد فسر البابويون هذا كدليل على أن شجاعته قد بدأت تخور. واعتبروا طلب التأجيل بمثابة مقدمة لسحب اقراره. واذ لاحظ شارل نفسه، ببعض الاحتقار، جسم ذلك الراهب المضنى وملابسه البسيطة وبساطة حديثه أعلن

قائلا: «ان هذا الراهب لن يستطيع أن يجعل مني هرطوقيا». لكنّ الثبات والشجاعة اللذين أبداهما الآن وقوة محاجته ووضوحها ملأت قلوب كل الاحزاب دهشة. وقد أبدى الامبراطور اعجابه فصاح قائلا: «ان هذا الراهب يتكلم بجنان ثابت وشجاعة لا تتزعزع». وكثيرون من أمراء المانيا نظروا بفخر واعجاب الى ممثل أمتهم الجريء هذا.

أما ممثلو روما ومشايعوها فقد انهزموا وبدوا كأنهم قد خسروا قضيتهم اذ ظهرت من منظور غير ملائم. وقد حاولوا الاحتفاظ بسلطانهم لا بالالتجاء الى كتاب الله بل بالالتجاء الى التهديد الذي هو حجة روما التي لا تخذلها. وقال الناطق باسم المجلس مخاطبا لوثر: «ان لم تتراجع فالامبراطور والامراء سيتشاورون في الاجراءات التي سيتخذونها ضد هرطوقي لا يمكن تقويمه أو اصلاحه».

أما أصدقاء لوثر الذين كانوا يصغون بفرح عظيم الى دفاعه النبيل فقد أرعبهم هذا الكلام. لكنّ الدكتور نفسه أجاب بكل هدوء: «ليكن الله معينا لي لأنني لا أستطيع أن أتبرأ من أي شيء» (١٠١).

أزمة خانقة

ثم طُلب منه الانسحاب من المجلس في حين جعل الامراء يتشاورون معا. وقد احسوا بحلول أزمة عظيمة. فان اصرار لوثر على رفض الخضوع قد يؤثر في تاريخ الكنيسة اجيالا طويلة. وقد تقرر اعطاؤه فرصة أخرى للتراجع. فلآخر مرة أتي به أمام المجمع، ومرة اخرى وجه اليه السؤال عما اذا كان يريد أن ينكر تعاليمه ويتبرأ منها. فقال:» ليس عندي جواب آخر اقدمه غير الذي قدمته من قبل». وقد اتضح وتبرهن أنه لا يمكن اقناعه بالخضوع لمطالب روما بالوعود أو بالوعيد.

اغتم الرؤساء البابويون واغتاظوا لان سلطانهم الذي أرعب الملوك والنبلاء صار محتقرا الان في نظر راهب وضيع. وكانوا يتوقون الى ان يجعلوه يحس بشدة وطأة غضبهم بتعذيبه الى أن يموت. ولكن اذ كان لوثر يشعر بالخطر المحدق به كان قد تكلم مخاطبا الجميع مظهرا عظمة المسيحية وهدوءها. كان كلامه خاليا من الكبرياء والغضب والتحريف. لقد نسي نفسه ونسي عظماء الرجال المحيطين به وأحس فقط بأنه في حضرة ذاك الذي هو أسمى، بما لا يقاس، من كل الباباوات والاساقفة والملوك والاباطرة. لقد تكلم المسيح على لسان لوثر مقدما شهادته بقوة وجلال الهما الاصدقاء والأعداء على السواء الرهبة والدهشة الى حين. كان روح الله حاضرا في ذلك المجلس ليؤثر في قلوب رؤساء الامبراطورية. وبكل شجاعة اعترف امراء عديدون بعدالة قضية لوثر. واقتنع كثيرون منهم بالحق، لكنّ بعضهم تأثروا تأثرا وقتيا. وقد وُجد فريق آخر لم يفصحوا عن اقتناعهم حينئذ، ولكنهم بعدما فتشوا الكتب لانفسهم في الايام التالية صاروا معاضدين للاصلاح لا يخشون بأس أحد.

كان المنتخب فريدريك ينظر بجزع وهو متوجس من ظهور لوثر أمام المجلس، وبانفعال شديد أصغى الى خطابه. وبفرح وفخر عظيمين شهد شجاعة الدكتور وثباته ورباطة جأشه فعزم على أن يقف بكل ثبات في الدفاع عنه. جعل يقارن بين طرفي النزاع فرأى أن حكمة الباباوات والملوك والاساقفة قد أبطلتها قوة الحق .لقد أصابت البابوية هزيمة سيحس بها الناس من كل الأمم وفي كل العصور.

فاذ رأى مبعوث البابا التأثير الذي أحدثه خطاب لوثر بات يخشى حينئذ أكثر من ذي قبل على سلامة سلطان البابا وعزم على استخدام كل الوسائل التي تحت يده لاسقاط المصلح والقضاء عليه. فبكل ما كان يملك من الفصاحة والمهارة الدبلوماسية التي اشتهر بها جعل يصور للامبراطور الشاب جهالة تضحية صداقة بابا روما العظيم لأجل قضية راهب مغمور.

لم يكن كلامه بلا تأثير. ففي اليوم التالي بعدما أدلى لوثر بجوابه أمر شارل بتقديم رسالة الى المجلس معلنا فيها عزمه على تنفيذ سياسة سابقيه في حفظ الدين الكاثوليكي وحمايته. وحيث أن لوثر قد رفض التبرؤ من ضلالاته فلا بد من اتخاذ كل الاجراءات العنيفة ضده وضد الضلالات التي علَّم بها: «ان راهبا واحدا أضلته جهالته قام يحارب ايمان العالم المسيحي كله. ولأجل ايقاف هذا الالحاد عند حده سأضحي بممالكي وكنوزي واصدقائي وجسدي ودمي وروحي وحياتي. اني سأطرد لوثر الاوغسطيني وأنهاه عن أحداث أي شغب بين الشعب. وبعد ذلك سأهب لمحاربته هو ومشايعيه بصفتهم هراطقة عصاة بالقطع والحرم وكل وسيلة يمكن أن تخطر على البال لملاشاتهم. وأنا أطلب من أعضاء الولايات أن يتصرفوا كمسيحيين أمناء» (١٠٢). ومع ذلك فقد أعلن الامبراطور أن صك أمان لوثر ينبغي احترامه، وقبل فرض الاجراءات التي ستتخذ ضده ينبغي أن يُسمح له بالعودة الى وطنه بسلام.

عادات وتقاليد

كان هنالك رأيان متناقضان تشبث بهما اعضاء المجلس. فرسل البابا ونوابه عادوا يطالبون بأن يُغفل صك أمان المصلح ولا يُلتفت اليه. ثم قالوا: «ينبغي أن يتلقى نهر الرين رماده كما تلقى رماد جون هس منذ قرن» (١٠٣). لكنّ امراء المانيا مع أنهم هم أنفسهم كانوا بابويين وجاهروا بعدائهم للوثر احتجوا على خيانة الأمانة ونكث العهد واعتبروا ذلك لطخة عار في جبين كرامة الأمة. وقد وجهوا الانظار الى الكوارث التي جاءت بعد مقتل هس وأعلنوا انهم لا يتجرأون على أن يستمطروا على المانيا وعلى رأس امبراطورهم الشاب مثل تلك الفواجع الرهيبة التي حدثت من قبل.

وجوابا على ذلك الاقتراح الدنيء أجاب شارل نفسه قائلا « انه لو نُفي الايمان من العالم كله فينبغي أن يجد ملاذا في قلوب الملوك والامراء » (١٠٤). ومع ذلك فقد ظل البابويون الذين كانوا ألد اعداء لوثر يلحون على الامبراطور أن

يعامل المصلح كما قد عامل سجسموند هس، أي أن يتركه تحت رحمة الكنيسة. ولكن اذ ذكر شارل الخامس منظر هس في الاجتماع العام وهو يشير الى اغلاله مذكراً الامبراطور بالعهد الذي كان قد ارتبط به أعلن شارل قائلا: «أنا لا أريد أن يعلو الخجل وجهي كما قد حدث لسجسموند» (١٠٥).

ومع ذلك فان شارل رفض عمدا التعاليم التي قدمها لوثر. فقد كتب ذلك الامبراطور يقول: « لقد عقدت العزم على التمثل بأسلافي » (١٠٦). لقد عزم على الا يخرج على العُرف ولو حتى ليسير في طريق العدل والبر. فلكون آبائه قد أيدوا البابوية فهو ايضا سيؤيدها بكل ما تنطوي عليه من قسوة وفساد. وهكذا تمسك بموقفه ورفض قبول أي نور أكثر مما قد حصل عليه أسلافه أو القيام بأي واجب اكثر مما قد قاموا هم به.

وفي أيامنا هذه يوجد كثيرون ممن يتعلقون بعادات آبائهم وتقاليدهم. وعندما يرسل الرب اليهم نورا اكثر يرفضون قبوله. فلأن آباءهم لم يُعط لهم النور لذلك هم لا يقبلونه. ان موقفنا ليس كموقف آبائنا، ويستتبع ذلك أن واجباتنا وتبعاتنا ليست هي واجباتهم وتبعاتهم نفسها. ان الله لا ينظر الينا بعين الرضى والاستحسان عندما نجعل مثال آبائنا يقرر واجبنا بدلا من كوننا نتقصى كلمة الحق لأنفسنا. ومسؤوليتنا هي أعظم مما كانت عليه مسؤولية آبائنا وأسلافنا. فنحن مسؤولون عن النور المعطى لهم والذي انتقل الينا كإرث، كما أننا مسؤولون ايضا عن النور الاضافي الذي يشرق علينا الان من كلمة الله.

عطف النبلاء

لقد قال المسيح عن اليهود غير المؤمنين:» لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطيئة. وأما الان فليس لهم عذر في خطيئتهم» (يوحنا ١٥: ٢٢). السلطان الالهي نفسه تكلم على لسان لوثر على مسامع امبراطور المانيا وأمرائها. واذ أضاء النور من كلمة الله كان روحه يتوسل لآخر مرة الى كثيرين من أعضاء ذلك المجلس. وكما أن بيلاطس قد جعل الكبرياء وحب الشهرة يغلقان

قلبه في وجه فادي العالم منذ قرون طويلة مضت، وكما أمر فيلكس الوالي المرتعب رسول الحق قائلا له: اذهب ومتى حصلت على وقت استدعيك. وكما اعترف اغريباس المتكبر قائلاً : بقليل تقنعني أن أصير مسيحياً (أعمال ٢٤: ٢٥ ؛ ٢٦: ٢٨) ومع ذلك فقد انصرف عن الرسالة المرسلة اليه من السماء كذلك خضع شارل الخامس لما فرضته عليه الكبرياء والسياسة العالمية، فقرر أن يرفض نور الحق .

وقد راجت الاشاعات عن المؤامرات التي تدبر ضد لوثر، ما احدث اهتياجا عظيما في كل المدينة. وكان المصلح قد عقد صداقات مع كثيرين ممن كانوا يعرفون غدر روما وقسوتها ضد كل من يفضح مفاسدها فعوَّلوا على عدم التضحية به. وتعهد مئات من النبلاء أن يكونوا حماته. واشتكى عدد غير قليل منهم علنا رسالة الامبراطور كاستسلام مهين لروما. وعلى أبواب البيوت وفي الأماكن العامة نُصبت لوحات بعضها يدين لوثر والبعض الآخر يناصره. وعلى احدى تلك اللوحات كُتب قول الحكيم ذو المغزى العظيم: « ويل لكِ أيتها الارض اذا كان ملككِ ولداً » (جامعة ١٠ : ١٦). وقد اشتدت حماسة الجميع في جانب لوثر في كل انحاء المانيا، وهذا اقنع الامبراطور وهيئة المجلس أن أي ظلم يقع عليه سيعرض سلام الامبراطورية للخطر، ويزعزع العرش.

محاولات للمساومة

أما فريدريك منتخب سكسونيا فقد كانت لديه خطة مدروسة،وهو بكل حرص أخفى مشاعره الحقيقية تجاه المصلح،بينما كان في الوقت نفسه يحرسه بيقظة لا تعرف الكلال،مراقبا تحركاته وتحركات كل خصومه. ولكن كان هنالك كثيرون ممن لم يحاولوا اخفاء عطفهم على لوثر. لقد زاره امراء وكونتات وبارونات وشخصيات كثيرة شهيرة من العلمانيين والاكليروس. وقد كتب سبالاتين يقول: « ان غرفة الدكتور الصغيرة لم تكن تتسع لكل الزوار الذين قدموا انفسهم اليه » (١٠٧). وكان الشعب يشخصون اليه كما لو كان

أعظم من انسان. وحتى اولئك الذين لم يكونوا يؤمنون بتعاليمه كانوا معجبين بالاستقامة الرفعية التي اتصف بها هذا الرجل فجعلته يفضل الموت على مخالفة ضميره.

بذلت جهود جدية للحصول على موافقة لوثر على عقد اتفاق مع روما. وصوَّر له الامراء والنبلاء انه ان أصر على التشبث بحكمه ورأيه ضد حكم الكنيسة والمجامع فسينفى بعيدا من الامبراطورية بعد قليل ولن يكون هنالك حصن يحميه. فأجابهم لوثر على ذلك بقوله: «ان انجيل المسيح لا يمكن أن يبشر به من دون عثرة... اذاً فلماذا تفصل المخاوف المتوقعة بيني وبين الرب أو بيني وبين كلمته الالهية التي هي وحدها الحق؟ كلا، فأنا افضل بدلا من ذلك أن أسلم جسدي ودمي وحياتي للخطر والموت» (١٠٨).

ومرة اخرى الحوا عليه في الخضوع لحكم الامبراطور وحينئذ لن يكون هنالك ما يخافه. فأجاب قائلا: «أنا راضٍ من كل قلبي أن يفحص الامبراطور والامراء بل حتى احقر مسيحي كتبي ويحكموا عليها بشرط واحد هو أن يتخذوا كلمة الله نبراسا لهم، اذ ينبغي للناس أن يطيعوها. لا تستخدموا العنف ضد ضميري الذي هو مقيد ومرتبط بكلمة الله» (١٠٩).

وقد أجاب على التماس آخر بقوله: «اني راضٍ أن أتخلى عن صك الامان المعطى لي فأنا أضع شخصي وحياتي بين يدي الامبراطور. ولكن لن يحدث أن أتخلى عن كلمة الله ابدا!» (١١٠). وقرر أنه يرغب في النزول على حكم مجمع عام بشرط أن يُطلب من ذلك المجمع أن يحكم بموجب الكتاب المقدس. ثم أضاف قائلا: «في كل ما يختص بكلمة الله والايمان يصلح كل مسيحي أن يكون قاضيا كالبابا سواء بسواء حتى لو كان يسند البابا مليون مجمع» (١١١). أخيرا اقتنع الاصدقاء والاعداء كلهم أنه لا جدوى من محاولة عقد صلح بعد ذلك.

صمود غير متزعزع

لو كان المصلح قد استسلم في بند واحد لكانت النصرة للشيطان وجنوده. لكنّ ثباته الذي لم يتزعزع كان هو وسيلة تحرير الكنيسة وبدء عهد جديد افضل. فهذا الرجل الفرد، الذي تجرأ على أن يفكر ويتصرف لنفسه في الشؤون الدينية، كان موشكا أن يحدث تأثيرا في الكنيسة والعالم ليس في عهده هو فقط بل في كل العصور اللاحقة. وثباته وولاءه سيقويان الجميع الى انقضاء الدهر عندما يجوزون في مثل ذلك الاختبار. لقد وقفت قوة الله وجلاله فوق مشورات الناس وفوق قوة الشيطان الهائلة.

ثم صدر أمر الامبراطور الى لوثر بالعودة الى وطنه. وقد عرف أن هذا الامر ستتبعه حتما ادانته سريعا. لقد تجمعت في طريقه السحب المنذرة بالخطر. ولكن فيما كان راحلا عن ورمس امتلأ قلبه فرحا وسلاما. قال: «ان الشيطان نفسه يحرس قلعة البابا لكنّ المسيح قد أحدث ثغرة فيها وأجبر الشيطان على الاعتراف بأن الرب أقوى منه » (١١٢).

فبعد رحيله اذ كان لوثر لا يزال راغبا في الا يُفهم ثباته، خطأً، على أنه تمرد، كتب الى الامبراطور يقول: « الله العارف القلوب يشهد انني راغب جد الرغبة في اطاعة جلالتكم في كل ما يؤول الى الكرامة أو الهوان، في الحياة أو الموت، ما عدا كلمة الله التي بها يحيا الانسان. ففي كل شؤون الحياة الحاضرة لن يتأثر ولائي لجلالتكم، لأن الخسارة او المكسب في هذه الحياة لا يؤثران في الخلاص. ولكن في ما يختص بالمصالح الابدية لا يريد الله أن يخضع انسان لانسان آخر، لان مثل هذا الخضوع في الامور الروحية هو عبادة حقيقية،وهذه العبادة ينبغي عدم تقديمها لغير الخالق وحده» (١١٣).

وعند رحيل لوثر عن ورمس كان استقبال الناس له في عودته يحمل شيئا من التملق أكثر مما كان عند سفره اليها. لقد رحب بعض النبلاء من رجال الاكليروس بذلك الراهب المحروم. وقد أكرم الحكام المدنيون الرجل الذي شهَّر به

الامبراطور،وألحوا عليه في أن يبشر. وعلى رغم نهي الامبراطور صعد لوثر مرة أخرى الى المنبر وقال: « إني لم أتعهد أبداً أن أقيد كلمة اللّه، كلا ولن... » (١١٤).

يقبض عليه ويسجن

ولم يكن قد مر عليه وقت طويل منذ ترك ورمس، واذا بالبابويين يقنعون الامبراطور باصدار مرسوم ضده. وفي هذا المنشور شـُهِّر بلوثر على أنه « الشيطان نفسه في شكل انسان وفي زي راهب » (١١٥) وصدر امر بأنه حالما تنتهي مدة صك الامان الذي في حوزته ينبغي ايقاف عمله. وقد حُرم على الناس أن يؤووه أو يقدموا له طعاما أو شرابا أو معونة من أي نوع لا بالكلام أو العمل، سرا أو جهرا. وكان يتعين القبض عليه أينما وجد ويسلم الى السلطات. وأتباعه ومشايعوه كانوا سيطرحون في غياهب السجون وتصادر املاكهم. وكان يجب احراق كتبه، وأخيرا كل من يخالف هذا المنشور كان ذلك الحكم يشمله. أما منتخب سكسونيا والأمراء اصدقاء لوثر فكانوا قد رحلوا عن ورمس بعد رحيله حالا. وصادق مجلس الامة على مرسوم الامبراطور. وهذا جعل البابويين يفرحون ويتهللون اذ اعتبروا أن مصير الاصلاح قد بات فشله محتوما.

لكنّ اللّه اعد لخادمه طريقا للنجاة في هذه الساعة، ساعة الخطر. ان عينا ساهرة يقظة كانت تتابع حركات لوثر، وقد عزم رجل ذو قلب مخلص نبيل على انقاذه. كان واضحا أن روما لن تقنع بغير موته. ولذلك فلم يكن متاحا انقاذه من بين مخالب الأسد بغير اخفائه. فألهم اللّه فريدريك منتخب سكسونيا ابتكار خطة تكفل حفظ المصلح. وقد نفذ ذلك المنتخب ما اعتزمه بمساعدة اصدقائه الامناء. وبذلك أمكن اخفاء لوثر عن الاصدقاء والاعداء. فاذ كان عائدا الى وطنه قُبض عليه وأبعد عن تابعيه

وأخذ بسرعة الى داخل الغابة ومنها الى قلعة ورتبرج التي كانت حصنا جبليا منعزلا. وقد كان القبض عليه واخفاؤه محاطين بالغموض الى حد أن فريدريك نفسه ظل بعض الوقت يجهل المكان الذي قد أخذ اليه. وهذا الجهل لم يكن بغير قصد. فطالما يجهل المنتخب مكان وجود لوثر لا يستطيع قطعا افشاء السر. وقد اكتفى بأن علم أن المصلح في مكان أمين، وانه معافى وحسب.

مر الربيع والصيف والخريف وأقبل الشتاء ولوثر لا يزال أسيرا، وابتهج الياندر وشركاؤه حين ظنوا أن نور الانجيل مقبل على الانطفاء. ولكن بدلا من هذا كان المصلح يملأ مصباحه من مستودع الحق، وكان نوره موشكا أن يضيء بلمعان أعظم.

كان لوثر في حصن أصدقائه في ورتبرج مغتبطا لأنه استراح من شدة المعركة وضوضائها. لكنه لم يكن قانعا بالهدوء والراحة. فاذ كان معتادا حياة العمل والنشاط والصراع الصارم لم يكن يحتمل البقاء ساكنا. ففي أيام الاعتزال تلك ظهرت حالة الكنيسة أمامه على حقيقتها فصرخ في يأس وقال: « واأسفاه! انه لا يوجد ولا واحد في يوم غضب الرب هذا يقف أمامه كسور ليخلص شعبه! » (١١٦). ومرة أخرى جعل يفكر في نفسه، وبات يخشى أن يُتهم بالجبن اذا انسحب من المعركة. ثم جعل يلوم نفسه على تكاسله وانغماسه في الراحة. ومع ذلك ففي كل يوم كان يعمل أكثر مما يبدو أن رجلاً واحداً يستطيع أن يقوم به. فما انفك قلمه يكتب. واذ كان أعداؤه يخدعون انفسهم بقولهم أنه خَرِسَ فقد شملتهم الدهشة والارتباك اذ ظهر أمامهم برهان ملموس على أنه لا يزال يعمل بنشاط. ذلك أن كمية كبيرة من الكراريس المكتوبة بقلمه كانت تتداولها الايدي في المانيا. كما أنه اسدى الى بني امته خدمة جليلة اذ ترجم العهد الجديد الى اللغة الالمانية. ومن قلعته الصخرية الشبيهة بجزيرة بطمس ظل يعلن الانجيل ويوبخ الخطايا والضلالات المتفشية بين الشعب في أيامه مدة تقرب من سنة.

لكنّ السبب الذي لأجله جعل الله خادمه ينسحب ويعتزل الحياة العامة لم يكن حفظ حياته من غضب اعدائه او منحه فرصة هدوء واستجمام استعدادا

للقيام بأعماله الهامة وحسب، بل لقد كانت هنالك نتائج أجلّ قدرا من هذه ستتحقق. ففي عزلة ذلك المعتكف الصخري وغموضه أبعد لوثر من كل معونة أرضية ولم يعد يسمع مديح الناس، وهكذا نجا من الكبرياء والثقة بالنفس اللتين تنشآن عن النجاح. فعن طريق الاذلال والآلام أعد للسير مرة أخرى وهو آمن فوق المرتفعات الشاهقة التي قد ارتفع اليها فجأة.

ان الناس اذ يفرحون بالحرية التي يمنحهم الحق اياها فانهم يميلون الى تمجيد الذين استخدمهم الله في تحطيم اغلال الضلال والخرافات التي كانوا مكبلين بها. والشيطان يحاول أن يبعد افكار الناس وعواطفهم عن الله وأن يجعلها تتركز في الوسائل البشرية، وان يقودهم الى اكرام الذين هم مجرد آلات وإلى تجاهل اليد التي توجه كل حوادث العناية. اننا في غالب الاحيان نرى أن القادة الدينيين الذين يحصلون على المديح والاكرام يتغافلون عن اعتمادهم على الله ويتناسونه. وهذا يقودهم الى الاتكال على نفوسهم. وينتج من ذلك انهم يحاولون السيطرة على عقول الناس وضمائرهم، اذ يميل هؤلاء الى أن ينظروا اليهم في طلب الارشاد بدلا من استرشاد كلمة الله. ان عمل الاصلاح كثيرا ما يتعطل بسبب هذه الروح التي يحتضنها وينغمس فيها معاضدو الاصلاح ومروجوه. وقد اراد الله أن يجنِّب عمل الاصلاح هذا الخطر. كان يريد أن يُطبع هذا العمل لا بطابع انسان بل بطابع الله. كانت انظار الناس قد اتجهت الى لوثر كمن هو مفسر الحق، وقد أبعد منهم حتى تتجه أنظار الجميع الى ذاك الذي هو مبدع الحق الازلي وهو الحق نفسه .